المبحث الخامس

الإسلام والعروبة.. اليوم:
ساعة المصالحة التاريخية مع.. النفس

أن تحل بالأمم الكوارث والنكبات.. ذلك أمر طبيعي يحدث لكل أمة على وجه الأرض في مختلف مراحل التاريخ.

ولكن أن يستمر الضياع.. ويستمر العجز أمام الكارثة، ذلك ليس بطبيعي.. وذلك ما يبعث على القلق والتشاؤم والمأساوية وما يتطلب مواجهة عاجلة بأقصى درجات الوضوح الفكري، وأقصى درجات الإنضباط والعمل الإرادي الدائب.

الخطير ليس أن نصاب بالمرض.. الخطير أن نتهرب من واقع المرض، وأن نعجز عن تشخيصه بشكل صائب، وأن نخفق في إتخاذ الخطوات الضرورية الفعالة على طريق العلاج.. وأن ينتقل المرض من الجسم إلى النفس والعقل والروح والإرادة.. فتلك هي الكارثة الحقيقية.

ويبدو أن القوى المعادية التي إستغلت السلبيات العربية العديدة وأوصلت الأمة العربية إلى ما هي عليه الآن، أي إلى وضع المرض المستفحل المؤلم، تعمل الآن بشراسة من أجل المرحلة التالية، الأخطر والأفدح، وهي مرحلة تعجيز العرب عن التفكير السليم في الكوارث النازلة بهم، وتعجيزهم عن إتخاذ أية خطوة في سبيل إسترداد العافية، بعد أن تم تعجيزهم عن مواجهة التحديات الأجنبية التي أحدقت بهم من كل جانب، ونفذت إلى عمق كيانهم.

ومرحلة التعجيز عن الوصول إلى أي علاج سليم هي بما لا يقاس أخبث كثيراً من مرحلة التعجيز عن المواجهة الخارجية، لأن ذلك يعني إستمرار تحطيم الحصانة الداخلية للجسم بعد أن إخترقته الجراثيم المندفعة من الخارج.

وما يحدث اليوم للعرب، بعد ان تمت مرحلة إختراق الجسم العربي، هو أنه يراد الآن تشويه المعاناة العربية للكارثة وصرفها عن مواضع الوجع الحقيقي ومواضع السرطان المتنامي إلى الإنشغال بمضاعفات أخرى جانبية أو مصطنعة أو إلى علاجات خاطئة تزيد الداء إستفحالاً، كل ذلك حتى لا تصحو هذه الأمة على وجعها الحقيقي وعلى ألمها الحقيقي وتقول هنا ألمي، وهذا هو بالتحديد دائي، ومن هنا يبدأ العلاج، وهكذا يكون الرد.

نعم.. لا يريدون لهذه الأمة أن يكون جرحها نقياً. فبعد أن جرحوها في العمق، يريدون للجرح أن يتلوث ويتعفن ويبقى كذلك، حتى يتسمم ويؤدي بها إلى الموت.

هذه هي طبيعة المرحلة الراهنة، وهذا هو شعارها: ان تحرم الأمة من المعاناة النقية السليمة.. أن تمنع من التفكير السليم والتشخيص الصحيح لجرحها العميق، تمهيداً لإكمال عملية الإفتراس.

والعرب من جانبهم لا يمكنهم التهرب من واقع الجرح اليوم. الجرح موجود وقائم في الصميم.

ولكنهم قادرون على منع تلويثه وتسميمه، قادرون على تحويله إلى معاناة نقية، والى ألم مطهر للنفس وجعله من تلك الالام النبيلة التي تصيب الأمم فتجعلها أكثر وعياً، وأكثر مناعة، وأقدر على شرف المواجهة وعلى تحمل أعباء الحياة.

المزيد من التشرذم أم الرد الوحدوي؟

المعاناة العربية وكمثال واحد على تشويه المعانة العربية، بين أمثلة كثيرة، هو أنهم عندما نجحوا في إستفراد كل بلد عربي وحيداً في الساحة بمفرده، واقتطعوا منه ما أرادوا، وفرضوا عليه المخطط الموضوع، بادروا فوراً إلى تعميق خلافاته الداخلية وإشعالها ليتحول كل كيان عربي إلى عدة كيانات متصارعة ومتشرذمة، ومنقسمة

فيما بينها إلى مالانهاية، تدور بلا حول ولا قوة، في فلك الإرادة لمعادية والهادفة إلى سلب ميراثها، ذلك لأنهم يدركون تماماً أن كل قطر عربي، تم إستفراده تحت ظروف قاهرة، لابد وأن يعود إلى أشقائه العرب الآخرين، لوصل ما انقطع، والتعويض عما تم التفريط فيه، وإحياء الرابطة العربية الشاملة التي لا بديل عنها ولا علاج غيرها.

ولوأد هذا الأحياء، وقطع الطريق على هذه العودة، وتشويه رد الفعل العربي، تأتي المرحلة التالية في مخطط العدو لتفتيت كل قطر عربي بمختلف وسائل التقطيع من طائفية وإقليمية ومن إرهاب وتكبيل وإفقار، لكي لا تتاح فرصة إسترداد الأنفاس، والعودة إلى خط الإرادة العربية المشتركة.

وهكذا يتحدد طابع الصراع الفكري -النفسي- بيننا وبين العدو في المرحلة الراهنة: بعد شق الصف العربي يصمم العدو الآن على شق الصف الداخلي والإرادة الداخلية في كل قطر عربي، ويتوجب أن يكون جوابنا عليه العودة إلى الرابطة العربية الكبرى الواحدة حتى لا نجد كل بلد من بلداننا وقد تحول إلى بلديات ومتصرفيات ومدن معزولة تدور في فلك الإرادة المعادية لنا جميعاً، لنا كأمة، ولنا كأقطار، ولنا كطوائف وأقليات وأغلبيات، على حد سواء، ودون تمييز. فالعدو، كما اتضح في سلوكه في لبنان، لا يميز في حقيقة الأمر بين طائفة وأخرى، ولا بين مذهب وآخر، ولا بين أقلية وأكثرية. أنه يريد أرض الأقلية والأكثرية وسيادة الأقلية والأكثرية، وخيرات الأقلية والأكثرية بلا إستثناء.

فهل نستسلم للمخطط المكشوف، ونترك العدو يفعل بنا ما يشاء، ويوصلنا إلى هدفه النهائي وهو تحويل كل جزء من أوطاننا إلى محمية تابعة لفلكه، أم نقلب مجرى الأحداث في وجهه بإصرارنا على تنقية المعاناة وتصحيح العلاج وذلك بالعودة إلى وحدة الوطن، وحدة كل وطن من أوطان العرب، ثم تسييج هذه الوحدة الوطنية بالرابطة العربية الأكبر والأشمل بعد تنقيتها من الشوائب التي علقت بها في الماضي، وتطويرها في ضوء المتغيرات الجديدة، لتتناسب مع طبيعة المواجهة وإحتياجات الأمة، وواقعها، وتطلعاتها؟

إن الأعداء يدركون بأن أمة عريقة، واسعة الأرجاء غنية التجربة، راسخة الجذور، كأمتنا لابد أن تنهض وأن تستفيد من دروس الكارثة إذا عرفت كيف تعاني

آلامها الحقيقية وكيف تعالج جروحها البليغة.

لهذا فهدفهم اليوم هو تشويه المعاناة وإخفاء الداء الحقيقي الذي هو التجزئة والتفرقة والتخلف، وإصطناع أعراض مزيفة كالخلافات المذهبية والمحلية والأقليمية، وخلق صراعات مصطنعة كالجدل بين التقدميين والتراثيين، وكالجفاء بين العروبيين والاسلاميين، وبين القوميين والدينيين، وما إلى ذلك من معارك جانبية لتصبح هي الصراع الحقيقي، وليتحول صراع الأمة ضد أعدائها وضد تخلفها إلى الظل والى الهامش، فيصبح العدو صديقاً وشريكاً، ويصبح الأخ والشريك عدواً.. وهكذا.. تنقلب كل المفاهيم والبدائة والمسلّمات فلا يعرف العرب كيف يتحركون للخروج من المأزق التاريخي الذي وقعوا فيه، ولا في أي إتجاة يتجهون، فتكتمل مرحلة الكارثة بمرحلة الضياع وما بعد المرحلتين الا مرحلة النهاية.. لاسمح الله.

ولننظر كيف فعل الغرب بمصير تركيا.. لندرك ولنتعظ. كانت تركيا تقود عالماً إسلامياً واسع الأرجاء. وكانت تتصدى بقيادتها هذه بمخططات الغرب في المنطقة الإسلامية كلها.

وأدرك الغرب أنه للإستفراد بالمنطقة يجب فصل تركيا عن جسمها الشرقي الإسلامي كله، وإستفرادها ثم إستفراد كل بلد في هذا الشرق على حدة.

وبأسم الانتماء إلى الحضارة والتقدم، وباسم التحالف مع الغرب، وباسم المساعدات الغربية أغروا تركيا بالتنكر لإسلامها وتراثها وتاريخها العثماني وحروف قرآنها **(كما يغري الغرب اليوم دولاً عربية بمساعداته، وتحالفاته، وصداقته).. فوقعت** تركيا في الشرك.. ووقعت في المصيدة. فلم تعد تنتمي لشرقها الإسلامي الكبير، ولم يقبلها الغرب سوى تابع لحلف الأطلسي، وحتى رفضوا دخولها السوق الأوروبية المشتركة رغم أنهم قبلوا جارتها اليونان.

واليوم تركيا إلى أين بعد أكثر من خمسين سنة من الولاء للغرب والقطيعة مع الإسلام والعرب؟

أي مصير؟ أي مكانة؟ أي شخصية وهوية وإنتماء؟ لخص أحد ساستها مآساتها بالقول: كنا أول دولة في الشرق.. فاصبحنا آخر دولة في الغرب.

وليس سراً أن دولاً عربية وقعت أو على وشك أن تقع في مصيدة شبيه بالمصيدة

التركية.. هل ستقبل بهذ المصير.. وهل ستقبل بالموضع الذي كبلوها به وفرضوه عليها؟

ذلك سؤال مصيري من أسئلة المعاناة الواجبة ومن وسائل تنقية الجرح، كي يلتئم، لا كي يبقى متسمماً كما يريدونه.

والواقع أنه كلما طال أمد القطيعة العربية، كلما طرأت ظروف، وتراكمت مضاعفات تمنع العودة وتخلق واقعاً إنفصالياً جديداً.. كالواقع الذي وجدت تركيا نفسها فيه في نهاية المطاف. وعلى العرب جميعاً أن يتحركوا باتجاه بعضهم قبل نسف الجسور نهائياً وقبل فوات الأوان.

بين الأصولية والتقدمية: لا مفر من الحوار

ثم لننتبه للعبة أخرى، بل مؤامرة أخرى مستمرة دائماً، لا تقل خطورة.

وهو أن أعداء الأمة، بالاضافة إلى تفريقهم لها على أساس الفروق الاقليمية والحساسيات الجغرافية بين قطر عربي وآخر – وهذا هو التمزيق الأفقي – عمدوا أيضاً إلى تمزيقها عمودياً في العمق باشعال النار بين التيارين في كل مرحلة بين التيارين الرئيسيين فيها: التيار التقدمي، التيار الأصولي، التيار العصري والتيار السلفي، التيار القومي والتيار الديني.

وكأن اللعبة تقتضي أن يقف الأعداء في صف التيار الأضعف عندما يقوى التيار الآخر ويبدو أنه على وشك توحيد الأمة والأخذ بيدها نحو التحرر والخلاص.

فعندما كان التيار الديني الأصولي هو السائد لدى الأغلبية أو هو الغالب، عمد الغرب إلى تغذية التيار القومي العصري، لا حباً فيه، ولا رغبة في إنتصاره، وإنما لتفجير الصراع داخل جسم الأمة بين العروبيين والاسلاميين، وبين العصريين والسلفيين، ومنع قيام الجبهة الموحدة الضرورية بين الجانبين.

وعندما بدا أن التيار القومي العصري قد أصبح الصيغة الغالبة، وانه على وشك إحداث التغيير المنتظر، تظاهر الغرب بتأييد التيار المحافظ، لا حباً فيه أيضاً بطبيعة الحال، ولكن لموازنته في الصراع المرير ضد التيار الآخر.. وهكذا..

هكذا يريدون الصراع في جسم الأمة.. دائماً مريراً لا هوادة فيه ولا رحمة ولا نهاية له، حتى يسقط التياران معا، وتسقط معهما الأمة كلها.

ولقد آن الأوان لنكتشف هذه اللعبة الجهنمية التي يلعبونها بنا.

آن الآوان أن ندرك أن كل أمة تنقسم في عصر نهوضها إلى من يرى رأي التقدميين ومن يرى رأي الأصوليين.. والى من يرى رأي القوميين، ومن يرى رأي الدينيين، وإنّ هناك قواسم مشتركة ومصائر مشتركة وأهدافاً مشتركة بين الجانبيين، وأن لكل فكرة دورها المشروع في نطاقها المشروع، فللتقدم مجاله في العلوم والتقنية، والمخترعات والتصنيع، وللتراث مكانته في نطاق الروح والقيم والأخلاق والتشريع.

كما للقومية مكانتها في مجال الترابط الإجتماعي اللغوي الثقافي والديني مكانته في مجال العقيدة والإيمان والعبادة والعمل الصالح والتوجيه السليم والتوحيد بين كل القوميات والأمم المسلمة.

فلماذا نندفع إلى خدمة الحرب الأهلية فيما بيننا، في الوقت الذي نتحدث فيه عن السلام مع الاخرين؟!!

سلام مع الآخرين، وحرب داخلية طاحنة مع النفس؟ أن يتحارب العصري العربي والسلفي العربي ليتصالحا مع العدو؟.. والى أين نريد أن نصل من هنا؟ غير طريق الكارثة النهائية؟

حقيقتان

ويبقى أخيراً أن نتنبه إلى حقيقتين: الأولى أن الخطر المحدق يشمل الجميع بلا استثناء. ولا يتصورنّ أحد أنه سيكون بمنجى من العاصفة لأن الفيضان لم يصل إلى داره بعد. والذين يتحدثون اليوم عن سياسات إقليمية ومحلية منفصلة عن الرابطة العربية الإسلامية الشاملة سيكونون الضحايا في وقت أقرب مما يتصورون.

والحقيقة الثانية أن الكارثة هذه التي شملت مختلف إتجاهات الأمة من عصرية وأصولية، ومن عروبية وإسلامية، يجب أن تدفع مختلف الأطراف المتصارعة إلى الإدراك أنهم يجب أن يدافعوا أولاً عن الارض والمصير المشترك والوجود المشترك لهم جميعاً ليبقى لهم في النهاية وطن يختلفون فيما بعد، بعد زوال الخطر، على تقرير إتجاهه الفكري، عصرياً أو سلفياً.. عربياً أم اسلامياً..

أما الصراع اليوم، الصراع الأعمى من اجل التدمير الذاتي، وقهر التيار الآخر بأي ثمن.. فذلك ثمنه واضح لا شبهة فيه، وستدفعه الأمة كلها من مصيرها.. ثمنه هو زوال الأرض كلها ليجد العصريون والأصوليون انفسهم لاجئين معاً في لامكان.. فهل هذا ما يريده العصريون العرب.. والأصوليون العرب لأنفسهم؟

إذن لا مفر من الحوار، لا مفر من الإحترام المتبادل والتفهم المتبادل بين جناحي الأمة. لامفر من التسامح فيما بيننا (**طالما أننا نتسامح اليوم مع الآخرين**) ولنقل لا للتخوين ولا للتجريح، ولا للتكفير.. لا لكل الإساءات لمتبادلة بين الجانبين، فالسلفيون هم أساس الأمة وأصلها وسندها، والمثقفون هم خيرة شباب الأمة ورجالها وطلائعها، وإختلاف الرأي لا يفسد للود قضية.. فكيف إذا كانت هذه القضية هي قضية وجود الأمة ومصيرها وخروجها من كل المحن الطاحنة التي تعتصرها؟

وهادينا لمثل هذا الحوار الذي لا بديل عنه قوله تعالى: ﴿ **أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾.

وإذا كان هذا الأدب الرفيع ملزما للمسلم في تبليغه وفي إقناعه لغير المسلم.. فهل يليق والحالة هذه بالمسلمين أن يتعاملوا فيما بينهم، ويتحاوروا فيما يخصهم، بغير التي هي أحسن؟

هذا من حيث المثل الأعلى الذي أدبنا به الإسلام.

أما من حيث الضرورة التاريخية، فليكن واضحاً لدى مختلف الاتجاهات والاجتهادات العربية والإسلامية بأن هذا هو زمن المصالحة التاريخية الحتمية فيما بينها لإنقاذ وجود الأمة.. وإلا فإنه سيكون زمن الفناء المشترك لها جميعاً.